الدرس (٠٢١) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال في باب الصدق من كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

يقول المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

٥٨- (الخَامِس عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عليهم، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِي بِهَا، ولَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بنى بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلَادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنْ القَرْيَةِ صَلَاةَ العَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ فَجَاءَتْ -يَعْنِي: النَّارَ- لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ الذهب، فوضعها، فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، فَلَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لِأَحَدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ لنا الغنائم، لَمَّا رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَأَحَلَّهَا لَنَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١)).

الخَلِفَات: بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام جمع خِلفة وهي الناقة الحامل.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).

قوله في هذا الحديث: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ» هو يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ، لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في حديثٍ آخر: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ» رواه أحمد في «المسند» عن أبي هريرة[٢]، فهذا يفيد أنَّ النَّبِيَّ المراد هنا هو يوشع عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لمَّا غزا هذا النَّبِيُّ، قال لقومه: «لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمْ يَبْنِ بِهَا، وَلَا أَحَدٌ بنى بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ أَوْلَادَهَا».

أي: أنَّ هؤلاء الثَّلاثة، الَّذِي عقد على امرأة ولم يدخل بها، يكون باله مشغولًا بهذه المرأة، والجهاد يحتاج إلى رجل متهيِّئ غير مشغول البال، وكذلك مَن بنى بيتًا لم يرفع سقفها، أو كذلك اشترى غنمًا، أو خلفات، ينتظر أولادها، فهؤلاء كلُّهم أذهانهم مشغولة، ونفوسهم مُتَعَلِّقة بذلك، فنهى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتبعه أحد بهذه الصِّفة، أي فيه هذا التَّعلُّق.

قال: «فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلَاةَ العَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ» دعا الله أن يحبس الشَّمس، أي أن يوقفها، فلا تستمرَّ في السَّير، فأوقفها الله تعالى حتَّى فتح الله عليه.

«فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ» أي: أمر النَّاس بجمعها، «فَجَاءَتْ -: النَّار- لِتَأْكُلَهَا» وكان مَن قبلنا قبول غنائمهم يكون بنزول نار تأكل تلك الغنائم، فلم تحلَّ لهم، وأمَّا أُمَّة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد أنعم الله عليهم بأن أحلَّ لهم الغنائم.

فلمَّا وُضِعت الغنائم في مكانٍ لتأكلها النَّار لم تطعمها النَّار، فعلم من ذلك هذا النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ ثمَّة مخالفة، وعدم صدق من بعض مَن جمعوا الغنائم، بأن يكونوا أخفوا شيئًا.

فقال: «إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا» والغلول: خيانة في الغنائم، بأن يؤخذ منها قبل القسمة، فلم يخرج أحد منهم يعلن صدقه وندمه، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ» أي: من إحدى القبائل، فقال: «فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ»

---

(٢) رواه أحمد في المسند (٨٣١٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة (٢٠٢).

أي: واحدًا واحدًا، «فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْل رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ» أي: كانوا أخذوه قبل القسم، «فوضعوه، فَجَاءَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، فَلَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لِأَحَدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللهُ الغَنَائِمَ لَنَا، لَمَّا رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَأَحَلَّهَا لَنَا».

وشاهد الحديث في باب الصِّدق: ذمُّ الكذب وأن عاقبته وخيمة، وأهمِّيَّة الصِّدق، وأن عاقبته حميدة في الدُّنيا والآخرة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٥٩- (السَّادِس عَنْ أَبِي خَالِدٍ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣)).

قوله: «البَيِّعَانِ» أي: البائع والمشتري، وقوله: «بالخِيَار» أي: لكُلٍّ منهما أن يختار إمضاء البيع أو عدم إمضائه، فهما بالخيار، أي: خيار المجلس، ولهذا قال: «مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا» أي: من مجلسهما، فمُدَّة بقائهما في المجلس هما بالخيار، قال: «فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا» صدقا، أي: كلٌّ منهما صاحبه، ولم يكذب عليه، و: «بيَّنَا» أي: بيَّنا ما في السِّلعة من عيبٍ أو نحو ذلك «بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا» أي: كان ذلك سببًا للبركة، والبركة: هي الزِّيادة والنَّماء.

فهذا فيه: فضل الصِّدق في التِّجارة، وأنه مطلب عالٍ، وأنَّه لا يصبر عليه إلَّا ذو حظٍّ عظيم، وأنَّ فيه بركة لمال الإنسان، ونماء لتجارته.

قال: «وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا» الكذب ضدُّ الصِّدق، والكتمان ضدُّ البيان، فقوله: «كذب»، أي: يكذب أحدهما على الآخر، أو يكتم شيئًا من العيوب الَّتِي في سلعته أو نحو ذلك، «مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» أي: زالت وذهبت، وأصبح البيع لا بركة فيه.

---

(٣) رواه البخاريُّ (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ**» رواه أحمد(٤).

هو حديث عظيم جدير بكلِّ مشتغل بالتِّجارة قلَّت أو كثرت أن يتأمَّله وأن يكون نُصبَ عينيه، بل ينبغي أن يُشاع بين التُّجَّار وفي المحلَّات التِّجاريَّة وبين الشَّركات حتَّى يُصَحِّحَ لمَن اشتغل بالتِّجارة مساره وطريقته في البيع والشِّراء والتَّعامل، وذلك بأن تكون التِّجارة قائمة على هذه الأسس الأربعة، لا يُساوم عليها مهما كان الرِّبح، بل يحافظ عليها، مهما عظمت المكاسب وكثرت الأرباح .

ومن هذه الأسس: (صِدْقُ حَدِيثٍ)؛ أي أنَّه لا يكذب بل يحافظ على الصِّدق، وعندما يُحدِّث النَّاس في بيعه وشرائه دائمًا يكون صادقًا، ويقول في نفسه: «ماذا يغنيني إذا حصلت بعض المال، وضاع منِّي خُلُق الصِّدق وأصبحتُ كذَّابًا؟!» وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّار**»(٥).

هذا ومما ينبغي أن يعلم في شأن الصدق وخاصة في أعظم الصدق شأنًا وهو الصدق مع الله أنه كما يُطلب منَ القَلب أن يكونَ صادقًا، فكذلك اللِّسان، وكذلك الجوارح، ولهذا كما يوصفُ القلبُ بالصِّدق، فإنَّ اللِّسان - أيضًا - يوصَفُ بالصِّدق، والجوارح - أيضًا - توصف بالصِّدق.

ومِن وَصْف اللِّسان بالصِّدق ما جاء في الدُّعاء العَظيم في حديث شدَّاد بن أوس - رضي الله عنه - قال: قال لي رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم -: «يَا شَدَّادُ بنَ أَوْسٍ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ والفِضَّةَ، فاكْنِزْ هَؤُلاءِ الكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ، والعَزِيمَةَ على الرُّشْدِ، وأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وأَسْأَلُكَ شُكْرَ

---

(٤) رواه أحمد في مسنده (٦٦٥٢)، وصحَّحه الألبانِيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٧١٨).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٩٤)، مسلم (٢٦٠٧).

نِعْمَتِكَ، وحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وأَعُوذُ بك مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ» .

واللِّسان الصَّادق: هو الَّذي يتَّفِقُ مع القَلب بأنْ يستَوي السِّرُّ والعَلنُ، اللِّسانُ والقَلبُ، لا أن يقولَ بلسانه ما لا يعتقدُه في قَلبه.

وأمَّا وصفُ الجوارح بالصِّدق والكذب، ففي الحديث الصَّحيح عندما قال النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم -: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فالعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، والأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، واللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلَامُ، واليَدُ زِنَاهَا البَطْشُ، والرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا، والقَلْبُ يَهْوَى ويَتَمَنَّى، ويُصَدِّقُ ذَلِكَ الفَرْجُ ويُكَذِّبُهُ».

ولهذا؛ كانت الأعمال نفسها على قسمين: أعمال صادقة، وأعمال كاذبة.

وإذا قيل: «إنَّ الصِّدقَ منجاة» فإنَّ معنى ذلك: أنَّ نجاةَ العبدِ في الصِّدق بالقَلب اعتقادًا، واللِّسان نطقًا، والجوارح عملًا، فلا بُدَّ أن تكونَ هذه كلُّها صادقةً.

ولنتأمَّل في هذا المعنى الآيةَ الَّتي تُعرَفُ عند أهل العلم بـ «آية البِرِّ»، وهي قول الله - سبحانه وتعالى -: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة:١٧٧].

فإنَّ قوله - جلَّ وعلا - في تمامها: {أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا} راجعٌ إلى أمرَيْن:

الأوَّل: صحَّة الاعتقاد، بصلاح قلوبِهم بأصول الإيمان {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}، وهذه أصول الإيمان الَّتي عليها قيامُه، وهي للدِّين بمثابةِ الأصول للأشجار والقواعد للبُنيان {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم:٢٤]، فكما أنَّ الشَّجرةَ لها أصلٌ لا تقوم إلَّا عليه، فالإيمان كذلك له أصلٌ لا يقوم إلَّا عليه.

الأمر الثَّاني: صلاحُ الأعمال؛ وذلكَ بحُسن الانقياد والاستسلام لله - تبارك وتعالى - ؛ بفعل ما شرع، والبُعد عمَّا نهى الله - تبارك وتعالى - عنه؛ فهذا كلُّه مِن صدق العَبد معَ الله - جل وعلا -.

ولهذا؛ فإنَّ إقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ، وفعلَ جميع فرائض الإسلام الَّتي أُمِر العَبد بها؛ من أمارات الصِّدقِ مع الله - جل وعلا -، لا أن تكونَ حالُه في العبادةِ وأداء الفَرائض حالًا انتقائيَّةً؛ بحيثُ يفعل منَ الفَرائض ما أقبلَت عليه نفسُه، وما لم تُقبِل عليه نفسُه منها لا يفعَله!! فهذا ليس من علاماتِ الصَّادقين مع الله.

فعُلم بذلكَ أنَّ الصِّدقَ مع الله عِلمٌ وعملٌ، عقيدةٌ وشريعةٌ، ليسَ الصِّدقُ مع الله شيئًا يكونُ في القَلب دون أن يكونَ له أثرٌ في جوارح العَبد، بل الصِّدقُ مع الله - جل وعلا - صلاحٌ في الباطن والظَّاهر، في السِّرِّ والعَلن، يُوضِّح هذا المعنَى قولُ نبيِّنَا الكريم - صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه -: «أَلَا وإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُله، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُله، أَلَا وهِيَ القَلْبُ»

وهذا فيه تبيانُ أنَّ صلاحَ القَلب بالصِّدق مع الله - تبارك وتعالى - ينعكسُ على لسانِ المرءِ بأن يكون لسانًا صادقًا، وعلى جوارح العَبد بأن تكونَ صادقةً في قيامِها بطاعة الله - سبحانه وتعالى -.

وأيضًا؛ يُفهَم مِن هذه الآية أنَّ أعمالَ الجوارح وشرائع الإسلام الظَّاهرة كلَّها مظاهرُ للصِّدق مع الله إذا نبعَت من قَلب المرء، ولم يكن مُتظَاهرًا بها، ولنتأمَّلْ - على سبيل المثال - ما رواه عبدُ الله بن عَمْرو - رضي الله عنهما - عن النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم - أنَّه ذكرَ الصَّلاةَ يومًا، فقال: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا، وبُرْهَانًا، ونَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ. ومَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، ولَا بُرْهَانٌ، ولَا نَجَاةٌ، وكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وفِرْعَوْنَ، وهَامَانَ، وأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ».

فقوله: «وبُرْهَانًا»، أي: على صدقِه في إيمانِه، ومثل ذلك أيضًا قول النَّبيِّ - صلى الله عليه وسلم -: «والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ» أي على صدق الإيمان.

والصِّدق مع الله – تبارك وتعالى – صلاحٌ للعَبد في قلبه بالتَّوحيد والإيمان والإخلاص والإذعان والمحبَّة والطَّواعية والامتثال لأمر الله.

فإذا صحَّ منَ العَبد صدقُه مع الله – تبارك وتعالى –، وكان قلبه صادقًا مع الله – تبارك وتعالى –؛ فإنَّ الجوارحَ – ولا بدَّ – تستقيمُ باستقامة هذا القلب؛ إذ إنَّ الجوارح لا يمكن أن تتخلَّف عن مُرادات القلوب.

وهذا كلُّه ممَّا يؤَكِّد أهمِّيَّة الصِّدق مع الله، وكِبَر شأنه، وأنَّ الواجبَ على العَبد أن يكون من أهله المحافظين عليه، الثابتين على التحلي به .

هذا ونسأل الله عز وجل أن يوفقنا أجمعين لكل خير؛ إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.